ألغام في

الفكر الإسلامي



07 ذو الحجة 1437 هـ ـ08/ 09 / 2016 م

www.ommaty1401.blogspot.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

كنت أظن أننا وصلنا إلى حالة من المحن والأزمات، ستجعلنا نتحد.. ونترك خلفنا صراعات الماضي الفكرية، ولكن يبدو أن مسألة "التسامح" لم يعد لها وجود في قاموسنا الإسلامي !

فبعد مؤتمر جروزني حول "من هم أهل السنة" وجدت ردة فعل عنيفة، اختلط في الحق بالباطل، مع محاولة إحياء إرث الماضي، دون أدنى تراحم، أو شعور الأمة الواحدة، بقدر ما هو صراع حول صاحب "الحق المطلق" ومن هم أصحاب السنة !.

ومع إخراج "السلفية أو الأثرية أو أهل الحديث" من البيان الختامي للمؤتمر.. غضب السلفيون – وحقُ لهم – فلماذا يتم إخراجهم من أهل السنة؟! بل ولماذا يتم إعداد مؤتمر للتعريف بأهل السنة، كأنها مسألة سنعيد اختراعها من جديد؟! فمُسمى المؤتمر نفسه مشبوه، في نفس الوقت الذي تغرق فيه الأمة في العلمانية، ويُستباح دمائها وثرواتها وبلادها.

ولكن عندما تتدخل السياسة والمصالح الحزبية والطائفية في مسائل الدين؛ تضيع معالم الحق، لأن الجميع سيُقدم مصالحه باسم الدين، وباسم الدفاع عن السنة، وسنحاول في هذه السطور إلقاء الضوء على التشابكات والتعقيدات التي تخص موضوع "أهل السنة".

***

تناقضات وأهواء

بدأت السلفية هجومها على المؤتمر من خلال الهجوم على رئيس الشيشان رمضان قديروف – والذي يُسمى فتى بوتين المدلل وجنده المخلص الذي قاتل المجاهدين، والذي قال إنه مستعد أن يهب حياته دافعاً عن بوتين! – والسخرية من رعايته للمؤتمر، ومن عمالته لبوتين رئيس روسيا؛ كونه قاتل المسلمين في بلاد القوقاز، وهو الذي دمر عاصمة الشيشان وقتل آلاف المسلمين، وهو يقتل المسلمين في سوريا الآن، وهذا الكلام كله حقيقة.

ولكن في العام الماضي فتحت السلفية أبواب الكعبة لقديروف وعائلته، وقام القارئ السلفي مشاري العفاسي بإنشاد نشيد مع ابنة قديروف ونزل في ضيافته، وقال الشيخ القرضاوي عن قديروف في مؤتمر "الإسلام دين السلام 2010" المعقود في غروزني: «إن جمهورية الشيشان لها في أنفسنا مكانة أي مكانة فهي جمهورية إسلامية نعتز بها وبمواقفها خاصة في عهد رئيسها الجديد رمضان قديروف والذي عرفنا أنه من أسرة علمية ودينية تعتز بالإسلام، فهو إضافة الى هذا الشعب والشيشان الحبيب»[1]. وبالفعل أسرة قديروف محجبة، وابنته تحفظ القرآن كاملاً !

ثم قال الشيخ القرضاوي عن مؤتمر اليوم إنه "مؤتمر الضرار"، وقد قال – من قبل – في جوابه عمن يطعن في عقيدة الأزهر: "ليس الأزهر وحده أشعرياً، الأمة الإسلامية أشعرية... كل العالم الإسلامي أشعرية، السلفيين مجموعة صغيرة، حتى إذا قلنا السعودية سلفية، ليس كل السعودية سلفيين"[2].

ويجب كذلك أن لا نغفل أيضاً أنه بتأييد المدرسة السلفية السعودية تم تقسيم الجزيرة العربية برعاية الإنجليز، وقالت السلفية إن ابن سعود – مُتولي الإنجليز – هو (إمام المسلمين!) الذي يحق له وحده النظر في مصالحهم، ولما اعترض "إخوان من أطاع الله" تم إصدار فتوى جامعة بتكفيرهم[3]، وهم جند المدرسة المخلصون، وتم قذف تجمعاتهم بطائرات الإنجليز[4]، وباسم فتوى المدرسة السلفية السعودية تم مجيء الاحتلال الصليبي للجزيرة – وعلى مقربة من الحرمين – وتم تدمير العراق.

وقال الكاتب محمد آل الشيخ – سليل أسرة الشيخ ابن عبد الوهاب رحمه الله – : "كنا مع السيسي لأن الإخونج والسلفيين المتأخونين أعداء لنا وله"[5] والسيسي قاتل شعبه في نظر كثير من المصريين، مثل قديروف !

ونجد رموز السلفية المعاصرة دوماً يؤكدون على أنهم وحدهم هم أهل السنة، وما دونهم مبتدعة على درجات، فالتراشق مستمر متى فُتح هذا الموضوع.

---

(1) تصريح للشيخ القرضاوي في فيديو مسجل له حول المؤتمر، وفي رسالة وجهها إلى المؤتمر.

(2) تسجيل صوتي للشيخ القرضاوي منشور على موقع "يوتيوب".

(3) راجع الفتوى على موقع الدرر السنية، وتجدها في مقال: تكفير المتوقف في التكفير على "مدونة أمتي".

(4) راجع - إن شئت - كتب: الطريق إلى مكة لمحمد أسد، الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، الإخوان السعوديون، تحفة المشتاق، ولادة الشرق، عبدالعزيز وبريطانيا، عبيد بلا أغلال ص 276، 289.

(5) تصريح له على حسابه على موقع "تونير".

ومن جانب آخر نرى سلفية تجاهد العدو المحتل، وتضحي بالنفس والمال من أجل إخراجه من ديار المسلمين.

فعند الرؤية الواقعية لا تُقدم الجانب الذي يخدم مصالحك، وتغفل الجوانب الأخرى. ونقول هذا الكلام لنُبين الفرق بين الشهادة لله، والشهادة للذات والجماعة. ولنعرف كيف تتمزق الحقيقة وتضيع بين الأطراف المتنازعة والمتعصبة.

غضب السلفيون، وأصدروا بيانات يؤكدون فيها أنهم حصراً هم أهل السنة، والباقي هم المبتدعة ! – مثلما حصل قديماً – ويبدو أن لدينا من الألغام في فكرنا الإسلامي ما تجعل من السهولة استغلالها في: التفرق في الدين، وإفساد ذات البين، وجعل البأس بيننا. ويجب تفكيك هذه الألغام حتى لا يُفجرها أحد فينا في اللحظات الحرجة.

***

قضية أهل السنة، ومن هم أهل السنة

بعد سقوط الخلافة الراشدة.. تحول الصراع السياسي بين المسلمين إلى اختلافات دينية، وفرق حزبية، فكان: الشيعة، والخوارج، والمرجئة، والأمويون، وكانت الدولة الأموية تُطلق على أي معترض على سياستها "خوارج"!، وكانت تُطلق على شيعة علي – كرّم الله وجهه – "السبئية الترابية"[1] قبل دخول الرفض والأفكار الباطنية عليهم.

وفي الدولة العباسية: ومع دخول الفلسفات اليونانية، ودخول أخلاط شتى من الأمم إلى الدين الإسلامي، واستقرار أمر الدولة، بدأت تظهر على السطح بعض الصدامات والتساؤلات حول الدين الإسلامي يثيرها من كانوا على أديان أخرى، أو من تأثروا بالفلسفة الجديدة الوافدة.. وكانت قضية "الآيات المتشابهات" أحد أهم مسارح الصراع الفكري، وقد تصدر "المعتزلة" قضية الدعوة إلى الإسلام أمام الأديان الأخرى، والرد على شبهات الخصوم، ولكنهم "غالوا" في تقديس العقل، مما أبعدهم عن روح الإسلام.

ثم ظهر بعد ذلك "الأشاعرة" و"الماتُريدية" يردون على المعتزلة والمرجئة، و"أهل الحديث – السلفية" يردون على الأشاعرة والماتريدية.

---

(1) السبيئة: نسبة إلى ابن سبأ اليهودي. الترابية: نسبة إلى كنية علي رضي الله عنه، المُلقب بأبي التراب.

وبدأ يتكون لكل فرقة أصولها وأفكارها، مع محاولة حصر "السنة" في كل فرقة[1].. قال بعض الأشاعرة والماتريدية إنهم وحدهم هم أهل السنة، وإماما أهل السنة هما أبو الحسن الأشعري، وأبو منصور الماتريدي.. حيث لا كبير فرق بينهما.

وقال أهل الحديث إمام أهل السنة حصراً هو أحمد بن حنبل بعد صموده في قضية "خلق القرآن" واللغط الدائر حول "كلام الله" وكيف يكون.

أما المتسامحون منهم فقد وسعوا الدائرة، وقالوا أهل السنة هم: "الأشاعرة، والماتريدية، وأهل الحديث (السلفية، الأثرية)" وأحياناً يخصصون أهل الحديث بـ "الفضلاء من الحنابلة".

ثم تخبو الصراعات حيناً، وتشتعل حيناً آخر، تغلوا جماعة على هذا الطرف، وتغلوا جماعة على الطرف الآخر، ويتم استغلال هذا "الغلو" في إدانة الفرقة الأخرى، والتشهير بها.

***

التوزيع الجغرافي لأهل السنة:

لعب التبني السياسي للآراء العقائدية دورا كبيراً في انتشارها، فلقد تبنى (المعتصم، والواثق، والمأمون) – ملوك الدولة العباسية – فكر المعتزلة، وكانوا به معجبين، ومشاركين في المناظرات التي تقع بينهم وبين خصومهم، لكن غلوهم في سحق الخصوم، وامتحان الناس، والبغي عليهم.. ولّد حالة من الغلو المضاد على الجانب الآخر، ولما جاء المتوكل انتصر لمذهب الإمام أحمد – رحمه الله – واستقرت المذاهب الفقهية على التالي:

مذهب أبو حنيفة (ماتريدية). مذهب الشافعية والمالكية (أشاعرة). مذهب الإمام أحمد (سلفية).

فكان المغرب العربي كله: مالكية في الفقه، أشاعرة في العقيدة.

وكان أهل مصر والشام وإيران (قبل الصفوية) واليمن وأجزاء من أفريقيا، وجنوب شرق آسيا، وأجزاء من العراق: شافعية في الفقه، أشاعرة في العقيدة.

---

[1] راجع - إن شئت - مقال: مصطلح السنة على "مدونة أمتي".

وكان بلاد ما وراء النهر (آسيا الوسطى) وشبهة القارة الهندية وتركيا: أحناف في الفقه، ماتريدية في العقيدة.

وكان أجزاء من العراق، والشام (ثم بعد ذلك الجزيرة العربية): حنابلة في الفقه، سلفية في العقيدة.

وكان لتبني الدولة العثمانية للمذهب الحنفي في الفقه، والماتريدي في العقيدة دوراً كبيراً في انتشار الماتريدية في طول العالم الإسلامي بحكم قوة الدولة، وبحكم رئاسة القضاء والإفتاء، فكانت تركيا وما حولها من بلاد على المذهب الماتريدي في العقيدة.

***

مشاهير الماتريدية

[إمام المذهب أبو منصور الماتريدي – أبو جعفر الطحاوي – أبو الهمام صاحب فتح القدير – محمد الفاتح – أبو المعين النسفي – ابن نجيم صاحب البحر الرائق – ابن عابدين فقيه الديار الشامية، ويقال أشعري كذلك – محمد زاهد الكوثري وكيل المشيخة الإسلامية للدولة العثمانية]

مشاهير الأشاعرة:

[إمام المذهب أبو الحسن الأشعري – الحاكم صاحب المستدرك – ابن حبان صاحب الصحيح – البيهقي صاحب السنن – الجويني إمام الحرمين – النووي شارح صحيح مسلم – أبو حامد الغزالي صاحب الإحياء – ابن حجر شارح صحيح البخاري – العز بن عبد السلام – الدارقطني صاحب السنن وعلل الحديث، وهؤلاء من الشافعية.. أما المالكية: ابن رشد شيخ المالكية – القاضي أبو بكر الباقلاني صاحب الإنصاف – القاضي عياض صاحب الشفا – الشاطبي صاحب الموافقات – القرطبي صاحب التفسير – أبو بكر ابن العربي صاحب أحكام القرآن]

مشاهير السلفية "أهل الحديث":

[إمام المذهب أحمد بن حنبل – ابن حامد صاحب تهذيب الأجوبة – القاضي أبو يعلى الفراء صاحب بطلان التأويلات – ابن الجوزي صاحب زاد المسير – ابن بطة صاحب الإبانة – ابن قدامة صاحب المغني – ابن رجب

صاحب شرح علل الترمذي – أبو بكر الخلال صاحب كتاب السنة – البربهاري شارح كتاب السنة – ابن المفلح صاحب شرح المقنع – ابن تيمية صاحب مجموع الفتاوى – ابن القيم صاحب زاد المعاد]

***

كتب العقائد

الناظر في القرآن الكريم يرى أسلوباً مختلفاً عما جاء في كتب ما يُسمى "العقائد" جميعها.. فلغة القرآن سهلة عميقة بعمق الناظر إليها، يستوعبها الإنسان في يسر وبساطة، فنجد في القرآن أسلوباً عاطفياً روحياً تارة، وأسلوباً تقريراً عقلياً تارة أخرى، وأسلوباً متحدياً في مواطن، وأسلوباً يتحدث عن الآخرة كأنها هي اللحظة الحاضرة في صورة إعجازية لا يقدر عليها سوى القرآن.. وهذا الكتاب هو كتاب الإيمان، وكتاب العقيدة الحقة.[1]

ولكن وجود الآيات المتشابهات في القرآن الكريم، والتي كان يمر عليها الرعيل الأول من الأمة بالتسليم، دون تقعير أو تعقيد أو تشقيق، ومن كان له رأي في مسألة.. فهو له، دون الحاجة إلى إقامة معارك، أو تكوين جماعات وفرق على أساس الموقف منها.

ومن أشهر الآيات التي كان اللغط حولها، قوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ فمن يُأول هذه الآية – ونظيراتها – أو يفوض معناها إلى الله فهو من "الأشاعرة، الماتريدية" وجيل منهم يميل إلى "التفويض"، وجيل آخر يميل إلى "التأويل" ليرد به على شبهات الخصوم؛ والتأويل في الآية يعني تفسير "الاستواء" بالهيمنة والاستعلاء، والكناية عن المُلك.

ومن يُثبت الاستواء فهو من "أهل الإثبات" من الحنابلة، ويبدو للحنابلة مدرستين في الإثبات: **الأولى**: "الإثبات مع التفويض والتنزيه"، **والثانية**: "الإثبات مع إجراء اللفظ على دلالته اللغوية وظاهره، بلا تكييف ولا تمثيل ولا تأويل" ومع الثانية هذه تدور معارك كثيرة !

كما تم تقسيم الصفات الإلهية إلى نوعين: **الأول**: صفات معنى كالحياة والقدرة والإرادة. **والثاني**: صفات عين كالوجه واليد. وحول النوع الثاني يدور اللغط.. فمنهم من يُثبت صفات الوجه واليد كصفات معنى لا كجوارح،

---

[1] راجع - إن شئت - مقال: العقيدة الإسلامية.

ومنهم من يُثبتها كجارحة وأجزاء؛ ومن ثَم تبعيض الذات الإلهية.. وحمل الصفات على مقتضى الحس؛ فيقع في التشبيه والتجسيم، ثم يجمع صفات العين مع بعضها: (الوجه، والصورة، والنفس، والعينين، والجنب، والحقو، والحُجْزَة، والساق، والساعد، واليد، والأصابع، والرِّجْلِ، والقَدم، والفخذ...إلخ) وصفاً للذات الإلهية !! وقال بعضهم: "نُثبت لله صفات أنه (شاب وأمرد وجعد وقطط والفراش والنعلان والتاج).. نُثبت ذلك تسمية لا نعقل معناها، ولا نُكيفها، ولا نقول هي جارحة ولا أبعاض" فيقولون عن الساق والساعد والحقو والأصابع...إلخ "صفات لذات الله لا على وجه الجارحة"، وهذا تناقض عجيب، وهدم لمقتضيات اللغة، فهو تجسيم صريح ثم نفي هذا التجسيم والبراءة منه !!

وقال بعضهم: "يجب الامتناع عن القول بأن الله جَلَّجَلَالُهُ لا يشبه الأشياء بوجه من الوجوه، فإن مقتضى هذا كونه معدوماً"؛ حتى لا يقع في التناقض !!

وقالوا من ينكر حديث: "رَأَيْتُ رَبِّي فِي صُورَةِ شَابٍّ أَمْرَدَ، لَهُ وَفْرَةٌ جَعْدٌ قَطَطٌ، فِي رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ " فهو زنديق، ومن شك في هذا الحديث أو في شيء منه فهو جهمي لا تقبل شهادته، ولا يسلم عليه، ولا يعاد في مرضه !!

وجعلوا كل مضاف إلى الله صفة من صفات ذاته سبحانه ! ثم بعدها يقولون "لا كما نعقل" ! وقال بعضهم: "يجب الإيمان بأن لله سبحانه ساقاً صفة لذاته، فمن جحد ذلك كفر" !

وبذلك هناك نوعين من الإثبات: **الأول**: "إثبات تنزيه" (وهذا فيما يبدو لا خلاف عليه). **والثاني**: إثبات تبعيض.. أي جعل الذات الإلهية ذات أبعاض وأجزاء وجوارح، مع البراءة منه تارة، والتصريح به بألفاظ معقدة تارة أخرى (وهذا الذي عليه الصراع والخلاف والاتهام بالتجسيم والتشبيه). ويبدو أن هناك من يخلط بين النوعين ولا يُميز الفرق بينهما.

وهناك من يُقسم الصفات إلى: "صفات ذات" و"صفات أفعال".

***

وكتب ما يسمى العقائد هي عبارة عن "تفسير الآيات المتشابهات" في القرآن أو ما قد يبدو فيها تعارضاً، وعلى أساس موقفك منها يتحدد العقيدة التي تَدين بها. والذي أراه أنه كان من الأفضل أن لا تُسمى "كتب العقائد" بل

تسمى "الآيات المتشابهات" منعاً لتضخيم أمر لم يُفصله القرآن، ولم يكن من سنة رسول الله ﷺ؛ ومنعاً لفرقة المسلمين على أمور ليست من أصل الدين، والتحزب عليها، وتهيّج الناس، وتبلبل أفكارها.

ولكن حصل العكس تماماً، لقد تحولت قضية الدين كله – في فترة من الفترات – إلى قضية "الاستواء على العرش" وحصلت معارك فكرية خطيرة، وتطور الأمر إلى التشهير، والسجن، والمحاكمات، والقتل، والتبديع، والتفسيق، والتكفير !.

فأصبح الأشاعرة والماتريدية ينعتون خصومهم من الحنابلة بـ "أهل التشبيه والتجسيم والحشوية" وقد وقع ذلك بالفعل في بعض حالات الغلو في الإثبات مما دفع العلامة ابن الجوزي الحنبلي تصنيف كتابه "دفع شبهة التشبيه".

وأصبح السلفية الأثرية ينعتون خصومهم من الأشاعرة والماتريدية بـ "أهل التعطيل ونفاة الصفات والجهمية" وقد وقع ذلك بالفعل في بعض حالات الغلو في التأويل.

وأصبح سلاح التبديع والتكفير – سواء الصريح أو المبيت – في يد الجميع، وفي يد السفهاء كذلك، يضرب بسيف الفرقة، والتحزب على قضية لم تكن يوماً أصلاً من أصول الدين.

بل أصبح موقفك من تفسير آية واحدة يُحدد الفرقة التي تُنسب إليها، فمن يقول سنرى الله في الآخرة لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ فهو من أهل السنة، ومن ينفي ذلك لقوله تعالى: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ فهو من المعتزلة؛ واستلزم كل فريق لله جَلَّجَلَالُهُ لوازم عقلية حاكمة على الآيات ! فمن يقول بالرؤية يُلزمه الطرف الآخر بأن الله تعالى جسماً، ومن لم يقل بالرؤية يلزمه الطرف الآخر بانتفاء الذات الإلهية، وهكذا في تعقيدات لا نهاية لها !.

وفي قضية "ماهية القرآن" قال المعتزلة: هل القرآن كلام الله الأزلي أم هو مُحدث؟! وانتهوا إلى أنه مُحدث وأنه مخلوق، ومن يقول غير ذلك فهو يجعل لله صفة التغير ! وبذلك لا يوحد الله في ذاته ولا صفاته، فقالوا: كلام الله عبارة عن أصوات وحروف يخلقها الله في غيره فتصل إلى النبي عن طريق المَلك؛ فبذلك فالقرآن مخلوق ! واستشهدوا بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ كما فسرها الزمخشري المعتزلي في تفسيره الكشاف، ومعنى أن كون الله متكلماً أنه خالق الكلام وفاعله.

وقالت السنة: القرآن كلام الله غير مخلوق؛ واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ وكلام الله صفة من صفاته، وصفات الله غير مخلوقة، إذن فالقرآن غير مخلوق. وقالو أيضاً: القرآن من علم الله وعلم الله غير مَخْلُوق والدَّليل على ذلك قَوْله تعالى: ﴿ وَلَئِن اتبعت أهواءهم بعد الَّذِى جَاءَك من الْعلم ﴾..

وقال البعض: القرآن كلام الله ولا نقول مخلوق ولا غير مخلوق، وقال البعض: الكلام كلامان كلام ذاتي أزلي، وكلام مقروء محدث. وقال البعض: من يقول القرآن مخلوق فهو كافر، ومن يشك في أنه غير مخلوق فهو كافر، وقال غيرهم: من يقول القرآن كلام الله ويقف ولا يقول غير مخلوق.. فهو من "الواقفية" وهو أيضاً كافر، وقال غيرهم: من يقول القرآن كلام الله، ولفظي بالقرآن مخلوق فهو من "اللفظية" وهو كافر، وقال غيرهم: القرآن كلام الله قاله بحرف وصوت، والكلمات فيه أزلية غير مخلوقة !

والحمد لله أن الجميع متفقون على أن القرآن "كلام الله ووحيه" ولكنهم مختلفون في ماهية وطبيعة هذا الكلام هل هو مخلوق أم غير مخلوق؟ هل هو أزلي أم محدث؟... إلخ من الأمور الفلسفية المُعقدة.

والموضوع كما يظهر للقارئ مغرق في التعقيد، والصعوبة، والتحديد، واختلاط الفواصل بين المفاهيم، وعجز ألفاظ اللغة عن احتوائه، ووصفه.. لأنه إغراق في الحديث عن ذات الله، وذاك أمر محال على العقل البشري، ومعرفة أي شيء فرع عن تصوره، وكل تصور عن ذات الله غير صحيح، فهو ليس كمثله شيء، ولا نعلم له سميا، وهو شديد المحال عن وصول الأفهام إليه جل جلاله، وإذا جهلنا الذات.. جهلنا بالتبع كيفيات أفعاله جل جلاله، والحديث عن الذات والكيفيات بعيد كل البعد عن روح الإسلام.

وخرجت "الصوفية" تحاول معالجة القسوة العقلية الناتجة عن الصراع الفلسفي حول تفسير الآيات المتشبهات وتعريف الإيمان والصفات الإلهية.. إلى التوجه نحو القلب والنفس، في محاولة لتزكية النفوس، وتربية الأخلاق، والزهد في الدنيا، ثم كان شأنها شأن كل جماعة تخرج كحالة رد فعل تجاه الغلو في أمر ما، ويكن لها من الحق في أمور معينة، ثم يدخل عليها "الغلو" هي الأخرى؛ فتحول التصوف فيما بعد إلى الدروشة والقعود عن الجهاد، وإلى الرقص والإنشاد، والغلو في الصالحين والمقامات والأقطاب !.

ولقد تضخمت العقول بهذه الصراعات، وقست القلوب عن روح القرآن ومعانيه ومقاصده.. وإن الذين في قلوبهم زيغ عن الحق هم الذين يغرقون ويُغالون في "اتباع المتشابهات" من الآيات، ثم يمزقون الأمة بعدها فرقاً وأحزاباً.. يلعن بعضها بعضا، ويُكفر بعضها بعضا، ويبغي بعضها على بعض.. حتى يكون البأس بينها شديد.

والمسلم الذي يبحث عما يعمر قلبه بالإيمان – بعد قراءة هذه التنازعات – يردد في النهاية قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ ويطمئن قلبه لقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾﴿ فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ويعرف أن الله العظيم يُعرفنا إليه من خلال ألفاظ اللغة التي يمكن أن تدركها عقولنا المحدودة الصغيرة[1] فضلاً وتكرماً منه على الإنسان.. وليس معنى ذلك أن يتطاول الإنسان، ويتجاوز حده، فيغرق في التعسف والتقعير والتكلف واللغو والغلو أياً كان اتجاهه.

***

وإن النزعة "العقلية التحررية" كالمعتزلة، والنزعة "المحافظة التقليدية" كأهل الحديث، والنزعة الوسط بينهما "كالأشاعرة والماتريدية" والنزعة "الروحية القلبية" كالصوفية.. هي نتاج طبيعي لحركة مجتمع عالمي مفتوح يضم أخلاط شتى، وأجناس متنوعة، وأفهام مختلفة، وفي الغالب فإن عموم الناس تنتسب – وتتعصب – لهذه النزعات استجابة نفسية عاطفية ليست قائمة على تمحيص الأدلة، ولا المقارنة بينها، ولا النظر في أدلة الأطراف الأخرى.. ولكنه الاتجاه والميل النفسي نحو الجماعة التي تجسد حالته النفسية، فمن يميل إلى التحرر العقلي وحرية النظر والفكر سيُعجب بفكر المعتزلة، ومن لدية التخوف من الخوض في النصوص والقول فيها بما لم يقله السابقون فسيتجه إلى أهل الحديث، ومن يحاول الموازنة بينهما وتقريب وجهات النظر سيتجه إلى الأشاعرة والماتريدية، ومن يَمل من هذا التناطح العقلي، ولا يحب الخوض الفكري في هذه الأمور، وقلبه يجنح إلى الروحانية.. سيتجه إلى التصوف.

وخطورة هذه النزعات كلها تتمثل في:

(1) حالات "الغلو" التي تسبب البغي على المخالفين، والتفرق في الدين، والتحزب شيعاً.

(2) والخروج عن روح الإسلام، وتعاليم القرآن.. عندما يبلغ الغلو مراحله الخطيرة.

***

[1] والعقل البشري يستحيل عليه أن يتصور شيء خارج الزمان والمكان، فكل تصور للعقل محكوم بحدود الزمان والمكان، والله سبحانه وتعالى مطلق عن الحدود، وخالق الزمان والمكان.

قلت لنفسي، وقالت لي:

قلت لنفسي: ألا يمكن أن ينادي مناد من السماء أن الجماعة الفلانية هي جماعة الحق، فالزموها ؟

فقالت لي: لقد كان ذلك بالفعل، ألم يُنزل الله كتابه، ويُرسل رسوله ﷺ ؟ ألم يقل الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ ؟

قلت: بلى، ولكن ما جواب ذلك في القرآن حول هذه الجماعات المختلفة؟

قالت: قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ﴿ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ﴿ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمْ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

فقلت: وكيف نتعامل مع هذه الأفكار والطوائف والعقائد المختلفة ؟

قالت: بروح التسامح، والحب، والألفة، ورد الإساءة بالإحسان.. وإياك ثم إياك والبغي سواء بالقول أو بالفعل، وإياك والكذب وشهادة الزور على دين الله انتصاراً للمذهب، وإياك وإدخال السياسة النفعية والخصومات الشخصية في دين الله.

قلت: وإلى ماذا أدعو الناس ؟

قالت: إلى كتاب الله، وتعاليم رسوله ﷺ، وأمر بالعدل والإحسان، وانهَ عن الفحشاء والمنكر والبغي.

قلت: وإذا حكمت وكان لي السلطان، لأي جماعة انتصر ؟

قالت: إذا كان لك السلطان فاحكم بالحق والعدل الرباني، ولا تظلم المستضعفين من المسلمين المخالفين لك، ولا تُكره أحداً على أمر ليس من أصول الدين، وارفع من كرامة المسلم، يكن لك كالبنيان المرصوص، وادع إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وإقامة شرائع الإسلام من صلاة وزكاة وصيام وحج، وإلى الإحسان في كل شيء، وإن كان لك – أو لجماعتك – من مذهب أو رأي فقل به في إحسان وإنصاف وتراحم وتسامح، بلا عدوان، ولا استطالة، وبلا تمزيق للأمة.

***

البغي والظلم:

إنني أحسب وأظن أن الله تعالى – يوم القيامة – لن يسأل المسلم لماذا تأولت قولي: ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ على أنها معية الله، ونصرته، وتأييده، وبركته ؟ ولن يسأل المسلم لماذا أثبت لي "اليد" ولم تأولها ؟

ولكنه سيسأله: **لماذا "بغيت" على أخيك المسلم، ونعته بالبدعة والفسق والكفر لأنه تأول الآية أو أثبتها؟ لماذا ظلمته وشهّرت به سواء بالقول أو بالفعل؟ لماذا حرّضت عليه الظالمين؟ لماذا فرّقت الأمة في أمر لم يكن يوماً أصلاً من أصول رسالة الإسلام؟**

﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾.

إننا إن عجزنا عن روح التسامح والألفة والمحبة بين أمة الإسلام، فليس أقل من الامتناع عن "البغي" الذي يُفرق الأمة، ويفسد عليها أمرها.

ولا نجعل من الخصومات أو الاختلافات الفكرية.. غذاءً وممداً لروح البغضاء والتعصب والحقد والحسد والغل الذي يحلق الدين كله.

***

خاتمة

إن في فكرنا الإسلامي ألغاماً مثل ألغام "التأويل والإثبات" ويجب على عقلاء هذه الأمة، نزع فتيل هذه الألغام.. حتى لا يستغلها الأعداء في إزكاء الخلافات بيننا، وتحويل الصراع إلى أن يكون صراعاً مع أنفسنا، نقاتل فيه أنفسنا، ونُخرب به بيوتنا. كمثل الصراع الذي حصل بين "الكاثوليك والأرثوذكس" وكان صراعاً حول طبيعة المسيح اللاهوتية والناسوتية، وها نحن نمضي في طريقهم حذو النعل بالنعل ! وإن كانوا هم اليوم أكثر تراحماً وتسامحاً فيما بينهم؛ حتى يتفرغوا لحربنا.

ولنا أن نتخيل: إخوة من الجزيرة من السلفية، مع إخوة من مصر من الأشاعرة.. يَستعدون لقتال عدو محتل كافر، فعرف هذا العدو أن هناك لغماً فيهم يسمى "التأويل والإثبات" فزرع فيهم من يُزكي هذه الخلافات، وينميها، وحرّك وسائل الإعلام للنفخ في ذلك.. ثم حصل أن قال إخوة الجزيرة للمصرين: أيها المعطلة النفاة الجهمية. وقال المصريون

لهم: أيها المجسمة الحشوية المشبهة. ثم كان في يد كل واحد منهم سلاحه، ثم تخرج الفتوى بأن قتال أهل البدع والمبتدعة مُقدم على قتال العدو المحتل؛ حتى تتطهر الصفوف فلن ننتصر بهذه البدع، وقال الإمام فلان المجسمة كفار، وقال العلاّمة فلان الجهمية كفار !! ولو تمكن المصريون سيسجنوننا كما سجنوا ابن تيمية من قبل.. هيا نقاتل أنفسنا !

ونضرب هذا المثل لنتصور خطورة ومحاولة "تقسيم الأمة" فإذا هي بالفعل طوائف ومذاهب شتى، فكيف إذا تم تقسيم أهل السنة أنفسهم؟! في نفس اللحظة التي يعد فيها العدو خطة "سايكس بيكو" جديدة لتقسيم المقسم، وتفتيت المفتت ؟!

وإن طغاة هذه الأمة لا يعنيهم كونك أشعرياً أو سلفياً أو صوفياً أو حتى ملحداً.. كل ما يعنيهم هو "توظيف الدين" في خدمة عروشهم، وشرعنة بغيهم وظلمهم..

وتحرير الأمة من الطغاة.. وإعادتها إلى سبيل الرشاد، هو ما يجب أن يشغل بال المسلم أياً كان مذهبه.

***